نفس الطاغية

في ضوء علم النفس التحليلي

لعلي أدهم

— ١ —

يزعم الماركسيون ان الافراد لا يقام لهم وزن في سير التاريخ ، وان القوى الاقتصادية والاجتماعية هي التي ترسم الخطط ، وتوجه المصائر ، وتحقق الغايات ، في المدى الواسع والحركات الشاملة ، سواء عاش من عاش أو مات من مات . ولكن الواقع ان الاحداث السياسية الكبرى هي في الغالب نتيجة التفاعل المستمر بين الاحوال المادية والاهواء البشرية ، وربما كان هناك شيء من الاسراف فيما يعزوه بعض المفكرين الى ما كان لانف كليوبطرة من خطر الشأن في الحركة التاريخية ، ولكن مما لا يكاد يختلف عليه انه لولا تمكين الالمان لزعيم البلاشفة من الوصول الى روسيا في أواخر الحرب العالمية الاولى لما كانت الثورة الروسية ، أو لتأخر حدوثها واتخذت صورة غير صورتها المعهودة ، ولا يمكن ان يفسر التاريخ من ناحية واحدة تفسيراً صادقاً ، ولا مفر لمن يحاول أن يستقري أسبابه ويتعرف بواعثه من ان ينظر اليه من زوايا مختلفة ، ويصطنع اساليب متعددة

وفي اعتقادي ان هتلر زعيم الالمان في العصر الحاضر من الاشخاص الذي وسم الحوادث بميسمهم الخاص ، وأثروا في مجرى التاريخ . وقد تختلف الآراء في تقدير مزاياه ، وتحليل اخلاقه ، وتحديد صفاته ، ولكن لا يمكن انكار شخصيته الفذة ، وتأثيره البعيد . فلولاه لما وقعت هذه الحرب الطاحنة ، او على اقل تقدير لما وقعت على النحو المعروف ، واصطبغت بالصبغة التي تبدت بها . وقد لا يكون الوقت الحاضر هو أنسب الاوقات لاصدار الاحكام على هتلر ، ووضعه في ميزان ، ولكن لا نزاع في ان لآراء معاصريه في نقد اعماله ، ووصف اخلاقه ، وفهم شخصيته . شأناً يذكر ، وقيمة لا تنكر ، وسيفيد التاريخ من أمثال هذه الآراء ويستشهد بها ويرجع اليها في تقرير احكامه بعد التمحيص والمراجعة والمقابلة والموازنة . وقد يزيد في قيمة أمثال هذه الآراء أو تكون مصدرها أحد الاعداء المعاصرين الذين شهدوا هذه الفصول وصدق

التحري وتقوب الفكر . ومن هؤلاء المفكرين الذين تناولوا شخصية هتلر بالتحليل الدقيق والكشف الفاحص الدكتور يونج ، وهو أحد علماء علم النفس الاعلام ، وفي طليعة تلامذة العلامة الكبير فرويد ، وقد اختلف مع استاذه واستقل عذهبه الخاص وأسلوبه الممتاز مثل ضريبه العلامة ادلر . قال عنه الدوس هكسلي : « يونج يوحي الى الانسان الثقة به والاطمئنان اليه لانهُ عالم نفسي بالطبع والصنعة، ويعالجك في اثناء قراءة كتبه الشعور بأنك في حضرة رجل يفهم الكائنات البشرية فهماً لا تشوبه الشوائب ويدرك كنهها ببصيرة نفاذة كالبصيرة التي يهتدي بها في فهم الناس الروائيون من طراز تولستوي ودستيوفسكي ، ولست أعرف عالماً نفسيًّا آخر يثير في نفسي مثل هذا الشعور ، وغيره من علماء النفس يعرفون واجبهم ، ولكن يونج على ما يلوح لي يفهم بكل كيانه لا بعقله فحسب ،وهو الى جانب معرفته بالنفس الانسانية المستمدة من البصيرة عالم قدير وفيلسوف وعالم ، والعالم النفسي الذي يستطيع ان يحدثنا بشيء له قيمة يلزم ان يكون صاحب مواهب متعددة »

— ٢ —

وفي اكتوبر سنة ١٩٣٨ بعد اعتداء هتلر على الجمهورية التشيكوسلوفاكية ذهب الى زيورخ انكاتب الصحفي الاميركي البارع نيكر بوكر ، وقصد الى العلامة يونج ليستوضح رأيه في هتلر ، وكان يعلم ان مثل هذه الشخصية العجيبة لا بد ان تكون قد شغلت بال هذا العالم النفسي الكبير وأثارت تفكيره ، وفعلاً علم منهُ انهُ درس شخصية هتلر سنوات عدة ، ولما سأله نيكر بوكر عن سر قوة هتلر أجابه بما يأتي : —

الرجال الاقوياء في المجتمع البدائي نوعان ، النوع الأول الزعيم وقوته عضوية فهو أقوى من مناظريه جميعهم ، والنوع الثاني رجل الطب الروحي وهو ليس قويًّا بنفسه وانما مصدر قوته ، تلك القوة التي يمنحه الناس إياها ، ومن ثمَّ عندنا « الامبراطور » و « البابا »

وهتلر من طراز رجال الطب الروحي ، وجسمه لا يوحي القوة ، والخاصة البارزة في محياه هي نعرته الخانقة ، وقد استرعى نظري هذا بوجه خاص عند مشاهدتي للصور الشمسية التي أخذت له عند حدوث أزمة تشيكوسلوفاكيا . فقد لمحت في عينيه نظرة « الرائي العارف »

وهنا وجه اليه نيكر بوكر هذا السؤال « ليس لهتلر تأثير ما في أحشائي على حين ان كل فرد أتلقى يكاد يخر أمامه ساجداً وعنده عادة ، فكيف ذلك ؟ »

فوافق على ذلك الدكتور يونج وقال هذا صحيح ، وقليل من الاحياء يتأثرون به وبنفوذه ، والانسان حيال هذا الامر ذلك . وسبب هذا ان هتلر هو مرآة العصر الماثل لكل

الآلي ، ولكنه بطبيعة الحال لا ينعكس في نفسه شيء من غير الالمان

وهو مكبر الصوت الذي يضخم الهمسات غير المسموعة للروح الالمانية فيصل صداها الى الاذن الالمانية الواعية ، وهو الرجل الذي يطالع كل الماني بما يشعر به في ثنايا عقله الباطن عن مصير المانيا وبخاصة فقد هزيمتها في الحرب العالمية ، والطابع الذي غلب على الروح الالمانية هو « عقدة النقص » التي يشعر بها الاخ الاصغر أو الفرد الذي يحضر دائماً المأدبة متأخراً قليلاً ، وليست قوة هتلر سياسية وانما هي سحرية

ولأجل أن نفهم السحر يلزم أن نفهم العقل الباطن ، والعقل الباطن جزء من تكويننا العقلي ليست لنا عليه سوى سيطرة يسيرة ، وهو حافل بضروب المأثرات والاحاسيس ، وهو يحوي أفكاراً وألواناً من الاستنباط لا ندري عنها شيئاً ، وعلاوة على المؤثرات الواعية التي تنتاب حواسنا فانها تتلقى كذلك مؤثرات لا نعيها ولا تدركها لأنها طفيفة لا تسترعي إنتباهنا الواعي ، وهي تكمن وتستخفي وراء مدخل الوعي ، وجميع هذه المؤثرات غير الواعية تثبت وجودها في سجل العقل الباطن ولا يفقد منها شيء ، وقد يتحدث بعض الناس بصوت خفيض لا يكاد يسمع في الحجرة المجاورة ولا نعيره نحن اهتماماً خلال تحدثنا في هذه الحجرة ولكن المحادثة مع ذلك تسجل في عقلنا الباطن

وليس سر قوة هتلر في ان عقله الباطن يحوي من القوة المذخورة اكثر مما عندك أو عندي ، وانما سر قوته له وجهان ، الاول هو ان عقله الباطن متصل بعقله الواعي اتصالاً شديداً غير مألوف والثاني هو انه يسترسل مع وحي عقله الباطن ويتأثر به ويخضع له ، فهو كالذي يصغي الى ايحاءات متواترة منبعثة من مصدر خفي في صوت موحوس ويعمل وفقها

وأما نحن فقد نتلقى أشياء من عقلنا الباطن بطريق الاحلام ، ولكن لنا من عقولنا وتفكيرنا ما يحول بيننا وبين الانقياد له وتلبية رغائبه ، أما هتلر فانه يصغي ويلبي الطلب والزعيم الحق دائماً « يُقاد »

ونحن نستطيع أن نلحظ تأثره بذلك الصوت الخفي ونلمح أثره فيه . وقد أشار هو الى ذلك ، وليس هذا الصوت سوى صوت عقله الباطن الذي ادمج فيه الالمان بجموعهم ، أي العقل الباطن لثمانية وسبعين مليوناً من الالمان ، وهذا هو ما يجعل هتلر قوياً ، وهو لا شيء بدون الشعب الالماني ، وهو صادق الصدق كله عندما يقرر انه يعمل ما يعمل لان الشعب الالماني يؤيده ويريد أزره . أو كما يقول هو في بعض الاحايين « لانه هو ما اريد » فهو قوي بعقله الباطن وكون هذا العقل وعاء لأرواح ثمانية وسبعين مليوناً من الالمان . وشعوره

اللاواعي بالتوازن الحقيقي بين القوى السياسية في بلاده والقوى السياسية في العالم لم يخطىء حتى الآن (١٩٣٨)

وهذا هو السبب في انهُ يصدر احكاماً سياسية صحيحة تزيف آراء مستشاريه وتخطىء آراء الاجانب الذين يراقبون سير الأحوال ، ومعنى ذلك ان المعلومات التي جمعها عقله الباطن ، وتسللت الى عقله الواعي ، عن طريق تلك الموهبة الخارقة كانت أدنى الى الحق وأقرب الى الصواب من المعلومات التي جمعها غيره من الناس سواء كانوا من الالمان او الاجانب الذين حاولوا ان يحكموا على الموقف وانتهوا الى نتائج مخالفة للنتائج التي انتهى هو اليها »

ولم يكن هتلر حينذاك قد اتهم نفسه بالوحي كما يزعمهُ ، وقال نيكر بوكر الدكتور يونج «لو استمرَّ صوت هتلر الداخلي على صواب دائماً لأصبحنا في عصر يثير الاهتمام الى أقصى حد »

فأجاب الدكتور يونج وقد بدت على وجهه أمارات الاهتمام « نعم ، ان الشعب الالماني على ما يلوح مقتنع بأنه قد وجد منقذه او «مسيحه» وموقف الالمان يشبه من بعض الوجوه موقف اليهود قديماً شبهاً يسترعي النظر

وقد انتظر الالمان « مسيحهم » المخلّص منذ هزيمتهم في الحرب العالمية ، وهذا من خصائص الأقوام المصابين بعقدة النقص ، وقد أصابت اليهود عقدة النقص من جراء عوامل جغرافية وسياسية ، فقد كانوا يعيشون في ناحية من العالم مستهدفة لغزوات الفاتحين من الناحيتين ، وبعد عودتهم من السبي الاول الى بابل كان الرومان يهددونهم باستئصالهم وقطع دابرهم وتذكروا فكرة « المسيح » ليتعزوا بها ، وكان هذا « المسيح » هو الذي سيجمع شملهم ويلم وحدتهم وينقذهم

وقد أصابت الالمان عقدة النقص من أسباب مشابهة لذلك ، فقد قدموا من وادي الدانوب متأخرين ، وعندما بدأت تتكوّن حياتهم القومية كانت حياة الانكليز والفرنسيين القومية قد اكتملت ونضجت ، وشرع الالمان في البحث عن المستعمرات ومحاولة وضع أسس امبراطورية جد متأخرين ، ولما تمت وحدتهم وأصبحوا أمة واحدة أدبروا الطرف حيث طرفوا الانكليز والفرنسيين وغيرهم من الامم تملك المستعمرات الغنية ، والعدة الكاملة ، فاستولت عليهم الغيرة ، واشتد بهم الحقد ، وهم مثل الأخ الاصغر الذي أخذ اخوته الاكبر منه سناً نصيب الأسد من الميراث

وهكذا كان الالمان يغطون في النوم اثناء تقسيم العالم الى امبراطوريات استعمارية ، ومن ثمَّ خضعوا عقدة النقص وجعلتهم يزعمون الى الحرب العالمية ، ولما خسروا هذه الحرب

ساءت حالة عقدة النقص الكامنة في نفوسهم ، وتفاقمت العلة ، وقويت رغبتهم في ظهور المنقذ المنتظر ، فكان لهم هتلر ، واذا لم يكن هو مسيحهم الحق فانه يشبه أحد انبياء كتاب العهد القديم (التوراة) ورسالته هي ان يضم شمل قومه ويقودهم الى ارض الميعاد ، وهذا يفسر لنا لماذا كان النازي يحاربون كل لون من ألوان الدين يناظر عبادتهم وتقديسهم لزعيمهم ولست أشك في أن الحملة على الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية ستستمر بلا هوادة ولا توقف ، وسبب ذلك معقول من وجهة النظر النازية ، فهم يريدون ان يحل محل هذه المذاهب العقيدة الهتلرية الجديدة

وروى الدكتور يونج انه شاهد هتلر عن قرب عند مقابلته لموسوليني في برلين فقال : كنت على كثب من الرجلين ، وأستطيع أن أدرسهما دراسة دقيقة ، وبدا لي ان هتلر بالقياس الى موسوليني كأنه آلة تدور بقوة محركة من الداخل ، ففي خلال فترة المقابلة لم يبتسم قط وكان كأنه حانق متعكر المزاج ، ولم يظهر ما يدل على انه انسان

«وكان المعنى الذي يلوح على وجهه هو شدة تصميمه على الاتجاه الى هدفه المقصود تصميماً لا تشوبه روح الفكاهة ، وبدا كأنه صورة أخرى لشخص حقيقي ، وان هتلر الرجل ربما كان مختبئاً في الداخل كأنه ملحق أو هامش وانه يتعمد ذلك حتى لا يعوق سير الآلة

ولا تشعر في حضرة هتلر انك مع رجل ، وانما أنت في حضرة طبيب نفسي ، فيغشاك الخوف وتدرك انك لا تستطيع أن تتحدث الى هذا الرجل لانه ليس هناك انسان ، فهو ليس رجلاً وانما هو « جماعة » وليس هو فرداً وانما هي « أمة » برمتها ، وأنا أصدق كل التصديق انه ليس له صديق شخصي ، وكيف تستطيع أن تتحدث حديثاً بلا كلفة مع أمة ؟

ثم استرسل يونج يقول : وأنت تعرف انك اذا جمعت في صعيد واحد مائة شخص من أوفر الناس ذكاء تكون منهم جمهور سخيف ، واذا اجتمع منهم عشرة آلاف كان لهم عقل عماح ، ألم تلاحظ انه كلما كثر عدد المدعوين الى الفائدة سخف الحديث ؟ وفي الجماعات تتضاعف الصفات الشائعة المشتركة بين الناس وتتكدس وتصبح هي خاصة الجماعة كلها

وليس في كل انسان فضائل ، وانما كل انسان له غرائزه الحيوانية الوضيعة ، وفيه ايحاءات انسان الكهوف البدائي وفيه سمات المستوحش السيء الخلق النزاع الى الشر ، والنتيجة المحتومة لذلك هي انه متى تمت وحدة شعب مكون من ملايين كثيرة من الناس فهو ليس انساناً وانما هو برص او تمساح أو ذئب ، ورجال السياسة في هذا الشعب لا يرتفعون عن مستوى كائنه الحيوانية ، ولو ان السياسيين في الحكومات الديمقراطية قد ارتفعوا قليلاً في سلوكهم فوق هذا المستوى ، وليس في وسع هتلر ان يبر بعهد قطعه على نفسه أو ان يحترم اتفاقاً ،

او يحافظ على معاهدة اذا كان في ذلك ما يفوت على المانيا مصلحة ما وذلك لانه هتلر هو الامة الالمانية »

— ٣ —

هذا هو رأي الدكتور يونج في هتلر وسر قوته وتعليل تأثيره في نفوس الالمان ، كما رواه الصحفي تيكر بوكر

ويرى «جون جنتر» ان اكثر الحاكمين بأمرهم من الشواذ لان الرجل العادي لا يستطيع ان يحتمل تبعة حكم امة من الامم حكماً استبدادياً ، وعنده ان الحاكمين بأمرهم مصابون في أعصابهم . فكمال اتاتورك كانت حياته عاصفة مضطربة ، ودولفوس كان شديد الشعور بأنه قزم قبيح ، وموسوليني مجنون بالقوة وأقربهم الى صحة الجسم وسلامة الاعصاب ستالين ولكنه كان في صباه من الثوار الذين يلقون القنابل

وقد فسّر العلامة النفسي النمساوي الدكتور ستيكل نفسية الطغاة بأنهم مصابون « بعقدة السيادة » وهو يرى ان تعليل ذلك يلزم ان يبدأ بالطفل والعمل على فهم ميوله ونوازعه . ففي كل طفل صراع بين غرائزه الخاصة والدروس التي يتلقاها من الخارج ، فالطفل مثلاً يحب أن يكون قذراً ، ولكننا نرغمه على ان يكون نظيفاً ، والتربية الى حد كبير مجهود يبذل لصياغة الطفل في قالب جديد وكبت غرائزه الاصيلة ، وهي تعتمد على تقرير السلطة ولذا تصبح السلطة في عدوة الطفل لان معناها اهدار حقوق غرائزه وقمعها

والسلطة الاولى هي سلطة الوالدين ، فهما اذا كانا ضعيفين وكان الطفل متعدياً للسلطة خارجاً على الأوامر والنواهي ظهرت سلطات أخرى لكبح جماحه والحد من طغيانه وهي سلطة أطفال أكبر منه سناً وسلطة المدرس وفي بعض الاوقات سلطة القانون ثم سلطة الدين وهي فوق جميع هذه السلطات . ومنذ سنة ١٩١٤ أخذت تتحلل عقدة السلطة . ومن الواضح المعروف ان الأسرة ليست في العصر الحاضر هي الوحدة المقدسة كما كانت في الماضي والآباء انفسهم لا يستحيون من الآن لمعايير الآداب التي يحاولون فرضها على أبنائهم . وقد كان ذلك سبباً في شق الاطفال عصا الطاعة وتمردهم على آبائهم ، وقد ضعفت كذلك سلطة المدرس فأصبح الأولاد لا يحترمون المدرس مأخذ الجد . وقد أضعفت الحرب الكبرى السلطة الدولية وتأثر بذلك المقادير والنظام في جميع الحدود القومية وأغرق العالم طوفان من الجرائم وخاصة في أميركا ، وأخذ الناس بعد ذلك يتساءلون « كيف نؤمن بالله الذي سمح بحدوث مثل هذه الحرب الشعواء وقتل ملايين البشر ؟ » وهكذا ضعفت نظرية السلطة وتحطم بناء العقيدة

واستتبع ذلك بضرورة الحال هبوب عاصفة الطغاة ؛ فأمثال هتلر وموسوليني يقومون مقام الآباء وقد يتقبل الناس سلطتهم ولكنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدونهم وقد وجد الطفل الحديث ان والديه غير جديرين بالطاعة فأخذ يبحث عن قائد محترم وامام رشيد فانتقل مركز السلطة الى خارج المنزل

ولكن لماذا لا يخرج الفرد على سلطة الزعيم كما خرج على سلطة الوالد ؟

يرى العلامة ستيكل ان شك الفرد في ان الزعيم غير معصوم يصل درجة كلما كثر انصار الزعيم ، وقويت شوكته ، واستفحل نفوذه ، وكلما كثرت الجموع الملتفة حول الزعيم قلت الحاجة الى الشك في قوته وعم البلاد تمجيده وخرت الأمة كلها عند اقدامه

ويقول ستيكل انه كلما تكاثرت الناس حول الزعيم استحال شعورهم بالنقص شعوراً بالتفوق ، وذلك لأنهم يضعون انفسهم في مكان الزعيم ، ويقاسمونه سلطته ، ويخلطون انفسهم به ، ويصبحون منه ويصبح هو منهم ، ويشاركونه في « عقدة السلطة » . والالمان يقولون انهم لا يحاربون من أجل هتلر وانما هتلر هو الذي يحارب من أجلهم ، وموسوليني لا يطلب القوة لنفسه وانما من أجل ايطاليا اي من أجل ايطاليين آخرين وهكذا يلتقي الخضوع والتحدي ، ويمتزج الحب والكراهة ، ويصبح الطاغية المستبد هو المنقذ

وأكثر الطغاة تمردوا في طفولتهم على سلطة آبائهم ، وقد وهبوا عقلاً أرجح وأسمى وارادة أمضى وأقوى ولذا نجحت ثورتهم بعد الطفولة البائسة والحرمان المؤلم وثاروا لانفسهم وانتقموا لما لحقهم من الاهانة وسوء المعاملة وأخذوا يفرضون سلطتهم على الغير ويعلمون الناس وأصبحوا آباء للوطن بأسره لا للاسرة وحدها

وأكثر طغاة العصر الحديث ولدوا فقراء فموسوليني وهتلر كانا في فقر مدقع ، وبعض الطغاة كانت طفولتهم مرة قاسية مثل هتلر ، ودولفس كان من أصل وضيع ، وقد استعاضوا عن مرارة طفولتهم بالبحث عن القوة وطلب المجد والشهرة

ولكن لماذا يصل الطغاة الى السلطة في يسر وسهولة حتى كأن الاقدار تمهد خطواتهم وتمهد لهم السبل وتذلل العقبات ؟

السبب في ذلك هو اننا نحن الأشخاص العاديين نحاول أن نلقي عبء كل أزمة على شيء ما ، وأقرب شيء نراه وأيسره هو النظم التي نعيش في ظلها . ولذلك يتقدح الشك في تلك النظم وتزول قداستها وتسقط وتنهار ، ويخلو الطريق للطاغية ، ويسهل بعد ذلك عليه الاحتفاظ بقوته لأن قوة السلاح كبيرة في نظامه والشر كما يقول ستيكل « يحبون أن يخوفوا »